بنت حلوة !

قصة : د. سيد شعبان

لم أكتب منذ فترة، شـــغلت كثيرا برتق ثيابي، لم تعد في خزانتي غير الثياب التي تهرأت وسرح فيها الزمن، مضت رغبتي في الألوان الزاهية تلبسها أنثى جميلة، ثوبها من قطن مشجر مطرز بالورد.

خدها يحمر حين يعابثها الديك الرومي يصيح وراءها يكاد يفتك بها تغيظه الثياب الحمراء والفتاة ذات الخد يقطر دما، تملأ الدنيا بهجة، أبحث عنها في طيات ذاكرتي، ربما هي الآن سيدة في بداية العقد الخامس، تغضن وجهها، أصابتها ملوحة، لم تعد الفتيات ترتدين تلك الثياب ذات الورد المشجر، لا أستطيع معرفة بعضهن، إنهن أشبه بالمسخ.

أقف عند موقف السيارات، أتصفح وجوه العابرات، ربما هذه هي أو لعل هذه ابنتها، يعتريني الخجل، لم أعهد من نفسي ذلك المتسكع في الطرقات، غير أن تلك البنت الحلوة لا تزال تسكن ذاكرتي.

تشغلني نون النسوة، إنها أغنية مفرداتها تتراقص، ساعة العصاري يمسك عم رمضان بنايه المصنوع من بوص الغاب يقف عند ضفة النهر ثم يراوح بأنامله مصدرا لحنا بديعا، نلتف حوله، نســـأله هل هي بنت حلوة؟

يتنهد ثم يتساقط الدمع من عينيه!

كانت أمي تحدثني عن عروس النيل، ذيلها يشـــبه سمكة البلطي، ترتدي فستانا من حرير أصفر، من يومها كلما رأيت امرأة تذكرت البنت الحلوة، هل اندثرت تلك المفردة من لغتي؟

يؤلمك أن تغيب البراءة، لوحات الفصول معتمة، لا تحســـن الفتيات خلط الألوان، صرن لا يمتلكن غير هواتف غبية، يرددن أغاني تافهة.

هذا أوان قطف الياسمين، تعبق الأجواء بالعطر.

سألني مدير إحدى الصحف اليومية:

لم فتر قلمك ؟

لم تعد تكتب مقالات مثيرة أو قصصا جميلة.

طمأنته أنني بخير، أخفي عنه بعض هم لازمني، هل أحكي له عن ذلك اللص الذي سرق مفتاح بيتي؟

هذا شـــأن خاص لن يهتم به أحد، تخيلـــوا يسرق دارك كما يفعل الصهاينة ثم يهرع إلى الصلاة، من يشاهده يجد معه مسبحة يتمتم بأوراد الشيطان.

أي كاتب هذا!

يجد نفسه بلا جذر، لمن يكتب أوتحسبونه حجرا؟

هذه حكاية تتكرر، سارق في ثياب حمل وديع.

ما يحدث لصغار غزة، تلك الأعضاء المتناثرة كما حبات الرمال المبعثرة، هل يمتلك قلم رفاهية الكتابة على أوراق الورد؟

أبحث عنها ليلة يكون القمر بدر التمام، هذه صورة تثير فضولي، هل تجلس في شفتها وتكتب أبيات شعر؟

إنها منشغلة برتق ثياب زوجها المحال إلى التقاعد، يشكو من غبش عينيه، هي الأخرى تعاني من الوحدة، لا يدري عن عالمها شيئا، ربما لم يشاهدها بالثوب ذي الورد المطرز.